من وراء المنظار

عجـــول وأناسى ...!

يا شيخ يا معلم — صلى عا النبي !

— أصلى عا النبي إيه ... اسكت يا عم خليك فى حالك ...!

صاح بالعبارة الأولى رجل فى المدخل الشمالى لميدان السيدة زينب ، ينادى بها فظاً غليظ القلب من بنى آدم كان بالليل يسوق أمامه عدداً من العجول الصغيرة قد سلكها جميعاً فى حبل ، وصار يدفعها بإحدى يديه فى غير هوادة إلى حيث تذبح ، ويهوى على أجسامها لايبالى أين يقع ضربه بحبل غليظ معقد كلما أبطأت ، أو على الأصح كلما جهدت وتقطعت أنفاسها فاضطرها الإعياء والكلال إلى الإبطاء ...

ورد ذلك الفظ فى غلظة ووحشية يطلب إلى من يسأله الرفق أن يبقى فى حاله فلا يتدخل فى شأنه ؛ وما ملك هذا إلا أن يحوقل ويستغفر الله ويستعيذ به ، وركن بعد لسانه إلى أضعف الإيمان !

ونظرت فإذا بذلك الغليظ الفظ يزيد الضرب بحبله على أجسام هاتيك العجول الجاهدة ويزيدها دفعاً ولكزاً ؛ ووقع أحدها على الأرض فجذب الصف كله وجذبه الصف فانقلب على ظهره وزعق زعقة مثلت لى ألمه بصورة لم يكن ليمثلها لى كلامه لو أنه تكلم ! ... زعقة أشبه بزعقة الآدمى يتمثلها منه الألم وفمه مزموم ، فهى بين حنجرته وخيشومه ... وكأنما يقول العجل الصغير آه ... وخيل إلىّ كأنما يدعو العجلُ ضاربه أن يصلى على النبى ! وأهوى الغليظ الجلف بحبله المعقد على العجل المسكين وحده ، وقد تمدد على جنبه وهو يحاول أن يمنع صدغه على الأرض فتجذبه العجول وقد اضطرب نظامها ، وإن جسده كله لينتفخ ويهبط فى سرعة من فرط ما يلهث ، وإنه ليحاول النهوض من ألم الضرب فما يزيد على أن يبسط أرجله ويثنيها فى الهواء تارة ، وعلى الأسفلت الجامد جمود قلب هذا الغليظ تارة أخرى ... ثم جذبه الجلف من إحدى أذنيه ومن ذيله جذبة قوية وركله ركلة شديدة ، فوقف على رجليه يلهث ، ومشى مع بقية العجول ، وصاحبه الفظ يمسك بذيله مخافة أن يقع ثانية على الأرض ... !

وتحرك قلبى لما رأيت ، ولكننى لم أستطع أن أصنع شيئاً ، ولا يعيبن القارىء علىّ أضعف الإيمان ، فالرجل غليظ وحبله أغلظ ، وما تملكت الملائكة ، أو كانت لى حتى بمخاطبة الغلاظ الجهال طاقة ... ولم يكن على مقربة منى شرطى أستعينه ... شرطى ؟ والله لو وجد لسخر منى أن أدعوه إلى مؤاخذة الرجل على صنعه ، ولظن بعقلى الظنون ...

وأعيذك أيها القارىء أن تعجب أن يتحرك قلبى لمثل هذا المنظر ، فما أحب إلا أن تكون رفيقاً ، وإذا أنت ترفقت بالعجول كنت حرياً أن تترفق ببنى آدم ... ولقد تداعى لهذا المنظر الأليم فى ذهنى معنى ... بل معان ... فكم من الآدميين من يرتبطون هكذا على خسف ويسقطون من كلال وإعياء ، وعلى جنوبهم وظهورهم تهوى أيد خفية بما هو أقسى من الحبل المعقد الغليظ ... أجل كم من آدمى فى الأصفاد والأغلال وإن لم تمض بساقيه سلسلة ، أو يخنق عنقه غُل ... كم من البشر من يساقون كما تساق هذه العجول ليكدحوا فى لظى الصيف وفى زمهرير الشتاء كى يسعد فريق مثلهم من بنى آدم بطيبات الحياة ، وأى فرق لعمرى بين هذا وبين الرق ؟ !

آه لقلبى ... وأفٍّ لمنظارى ... يا عجبا ! ما أسرع ما تمثل لى هذا المعنى الذى طاف بخاطرى ، فإذا هو صورة مجسدة تدب على الأرض ، فها هو ذا عسكرى غليظ شديد يسوق أمامه رهطاً من الغلمان ، قد ربط ذيل هذا فى ذيل ذاك ، أو يد هذا فى يد جاره ، إن لم يكن لهما ذيلان يربطان ، وقد التقطهم جميعاً من الشارع ، وكان ذلك فى نفس الميدان من مدخله الجنوبى ، ولا بد أن قطيع العجول قد مر برهط الصبية قبل أن تقع عينى عليهم بدقيقتين أو ثلاث !

وأخذ العسكرى الغليظ الفظيع يهوى بكفه الثقيلة المعقدة بما يتحلى به من خواتم غليظة على قفا هذا الصبى الهزيل مرة ، وعلى قفا ذاك المريض النحيل مرة ، والويل لمن يلتفت وراءه من

الصبية ؛ وكان هؤلاء الساكين كلما سمعوا وقع الكف الثقيلة المقعدة على قفا أحدهم ، رفعوا أكتافهم ونزلوا برؤوسهم ليخفوا أقفيتهم ، والرعب ملء جسومهم ، وحسبهم ما هم فيه من جوع وعرى ومرض وشقاء ...

ولم أطق صبراً فدنوت من هذا العسكرى العاتى ، فليس فى يده حبل أخاف منه ، وإنه لحرى أن يفره تدخلى وجرأتى فيحسبنى من رجال النيابة مثلا أو من أولى الجاه على أى حال وقلت فى لهجة الآمر لا فى لهجة المستفهم « لا تضرب هؤلاء الساكين يا شاويش » .

وصدق ظنى فقد رفع العسكرى يده إلى رأسه بالتحية ، وراح يفهمنى أن هؤلاء هم سارقو الجيوب وخاطفو الحلى ... و ... و ... فقاطعته وأنا أوهمه أنى أحفظ رقه قائلا « لا تضربهم مرة ثانية » ونظر إلى هؤلاء الساكين وقرأت فى كل وجه من وجوههم الشاحبة معنى أسمى من أن أصفه بالشكر... ووقعت نظراتهم من نفسى موقعاً ان ينهض لتصويره أبلغ الكلام ...

وتدخل شاب حاسر الرأس عليه حلة أنيقة وتحت إبطه مجلات وكتب فخاطب الشرطى فى عنف قائلا : « ألك أولاد يا شاويش ؟ أترضى أن يعامل أولادك هذه المعاملة ؟ » ثم أدار إلى الحديث قائلا « ومع ذلك فنحن كما نزعم أمة متمدنة ... فى أى بلد متمدن يوجد مثل هؤلاء الساكين فى الشوارع على هذه الصورة ؟ وأين ما نسمع عنه من أسماء المبرات وجمعيات الإحسان والخير ؟.. لقد مر بى منذ لحظة قطيع من العجول يدفعه فلاح عات كما يدفع هذا الشرطى الصبية فاشمأزت نفسى لذلك المنظر وتكدر خاطرى ، ثم ما لبثت أن رأيت هؤلاء الساكين.. ألا إن بيننا وبين الرقى أجيالا وأجيالا وإنما تخدعنا العمارات الضخمة والسيارات الفخمة والعواصم الكبيرة » .

وانطلق الشاب وقد غاب عن بصره وبصرى الشرطى والغلمان ، وقلت لنفسى ما أوسع الفرق بين مصير العجول ومصير الصبية ، فأما تساق هذه العجول إلى حيث تريحها سكين الجزار ، ويساق هؤلاء الصبية إلى حيث ينتظرهم العذاب الأليم !

الخفيف

رسائل عابرة :

الرســـالة الثالثة ...

للأستـــاذ ابراهيم محمد نجا

حسبتك تعرفين دواء روحى ... ورحلتك تعطفين على جروحى
ولكنى وجدتك لم تبالى ... بما يلقى أخو القلب الطليح !
بثثتك ما ألاقى من زمانى ... وبحت بما لدىّ ؛ لكى تبوحى
فكان الصمت والإعراض رداً ... أقض مضاجعى ، وأمض روحى
عرفتك ... فاذهبى ! وكفاك أنى ... من الآلام كالماشى الطريح
سأحيا طول أيامى وحيداً ... على الحرمان ، واليأس المريح
سأجعل هذه الأيام تهوى ... هُوىّ الصخر من فوق السفوح
وأعزف للفناء نشيد روحى ... ليحملها إلى الأفق الفسيح !
فإن حمل الفناء حطام روحى ... فلا تبكى علىّ ، ولا تنوحى
وإن وارى الثرى ذرات جسمى ... فقرى عند ذلك ، واستريحى
ولا تضنى ورودك فوق رمسى ... ولا تبكى هناك على ضريحى
فأنت قتلت آمالى جميعاً ... وبعثرت الشباب بكل ريح !
وأنت جرحتنى فى القلب جرحاً ... أراه غير مندمل القروح
ولو أنى وصفتك فى قصيدى ... بما تدرين من وصف فصيح
لقالوا إننى إياك أعنى ... فمن باغ عليك ، ومن نصيح
ولكنى سأكتم ما بنفسى ... وأمنعها من القول الصريح
واحفظ فى حنايا القلب شيئاً ... بعثت به من الوطن الجريح !
رسالتك التى صورت فيها ... تعارفنا على رغم النزوح !
وما أنا قد نسيت جراح قلبى ... ولا أنا عن جفائك بالصفوح
ولكنى أرق لكل أنثى ... وإن جارت على الأمل الطموح !
وأدفع عن صباها كل سوء ... وأحمله بقلب مستريح
سأنسى أننى أفضيت يوماً ... بأسرارى إلى قلب جموح
سأنسى أننى منيت قلبى ... بأن يروى من النبع الشحيح !
سأنسى ... ثم أذكر أن يوماً ... سيأتى قد تطيب به جروحى

ابراهيم محمد نجا